فى منطق العقاد ـ هو تغيير النظر الى الحياة ، كان يقول إن الحديث عن الزهرة فى الشعر يغذو الإحساس بالحرية ، وكان يقول إن اختبار المديح لايصح دون اختبار هذا الإحساس ، وكان يقول إن استعمال الوزن فى القصيدة لايستقيم دون تقدير للتغلب على قيده ، بحيث يصبح هذا الوزن آية من آيات الحرية ، وكان يرى أن الكلمات يتعلق بعضها ببعض ، ويؤثر بعضها فى بعض ، ولكنها تتضام فيما بينها فتعطى معنى فوق معناها القريب المتبادر ، لأن الكلمات كائنات تتطلع الى الحرية ، وكان ينظر فى أدب المعرى فيحتاط فى قبول بعضه ، لأن المعرى يسرف فى إعطاء القيد والأغلال مكانة لاتحد . إن الشعور بالحرية كامن فى كل موقف ، ولابد من تقويم الفكر كله فى ضوء مايتيحه للإنسان من تجاوز ، فنحن لانعجب بالأفكار لأنها مستقيمة صالحة فحسب ، ولكنها تعجبنا لأننا نستطيع من خلالها أن نتجاوزها بعض التجاوز ، وتلك آية الحرية ، كان العقاد يقول إن فكرة الحرية ذات ألوان كثيرة لا تحصى ، وإننا نرضى عن كل شعر وكل بلاغة إذا هى خدمت حاجتنا إلى التحرر أو ألفت بين التحرر والالتزام بطريقة تعصم الإنسان من النزق والعبودية .

كان الأستاذ العقاد يرى التجديد الحيوى والأدبى جميعا محتاجا إلى تمحيص القيمة وإقامة فلسفة جمالية ، وكان يرى فى هذا كله تقدمة ضرورية للكلام فى النص وشرحه .

من الواضح أن قارىء الأستاذ العقاد يستطيع أن يحكم بأن البلاغة العربية لم تحسن تقويم الشعر العربى فى خير أطواره ، فهى بلاغة تدعو لما يسميه الأستاذ العقاد باسم آداب الانحطاط . وهذه عبارة قاسية ، ولكن كل مطلع على آراء الأستاذ العقاد يدرك بغير قليل من الجهد أنه غير راض عن الكتاب المشهور الذى ألفه عبدالقاهر الجرجانى إمام البلاغة العربية ، والمعروف باسم « أسرار البلاغة » . وسنعود الى هذه الناحية بعد قليل ، ولكن القارىء خليق بأن يذكر على الدوام أن جهاد الأستاذ العقاد فى إعادة التقويم يعنى ـ دون شك ـ أن قوام البلاغة عند عبدالقاهر كان موضوع مراجعة مستمرة قوية . ولاشك أن كثيرا من شواهد هذا الكتاب ينطبق عليه ماسماه الأستاذ العقاد باسم آداب التلهية والبطالة والفراغ وفقدان دوافع القوة والحياة والحرية .

والمهم ـ قبل أن نستطرد ـ أن البلاغة العربية لم تستطع أن تصف عبقرية الشعر العربى ، ولاهى جعلت هذه العبقرية موضوع اهتمامها ، بل هى خيلت الى القارىء